الحزب الثوري

كظاهرة تاريخية حديثة

د . نديم البيطار

المقدمة

هناك كتابات كثيرة حول الأحزاب السياسية والثورية كأحزاب فردية ، ولكن الدراسات التي تركز على الجوانب أو العناصر المشتركة التي تشارك فيها هذه الأحزاب هي دراسات قليلة جداً، وأهمها كتاب ميشالز، "الأحزاب السياسية"، كتاب دوفيرجيه "الأحزاب السياسية" ؛ كتاب أوسترو غرسكي "التنظيم السياسي " ؛ ولكن ليس هناك دراسات، أو بالأحرى دراسة واحدة حاولت أن تكشف عن هذه العناصر الواحدة بين الأحزاب الثورية. الدراسة الحالية قد تكون الأولى من هذا النوع.

في عام ١٩٩٥ كتب أحد الباحثين في دراسة حول الثورة ، إننا أصبحنا ندرك أشياء كثيرة حول الثورة "ولكننا لسنا حالياً أقرب إلى تفسير نظري ملائم للثورات " . إنني أرجو أن تكون الدراسة إضافة جدية إلى هذا الموضوع المهم ، وأن تحقق بالتالي هذا التفسير الملائم بدراسة الحزب الثوري كظاهرة تاريخية حديثة.

- هذا قول يخرج عن الواقع الفكري التاريخي كما كان ولا يزال يصنع نفسه، عن طبيعة المعرفة العلمية كما نعرفها ليس ، فقط في العلوم الاجتماعية ، بل في العلوم الطبيعية نفسها، وذلك لأنه يمثل ثلاث أغلوطات أساسية؟ الأولى، هي أنه يعني، كي يصبح أن التفسير يجب أن يستنزف تماماً جميع جوانب وامكانات موضوعه، فلا يترك أي مكان أو ضرورة لأي تحوّل أو تقدم . إن فيزياء أينشتين، مثلاً، تجاوزت فيزياء نيوتن، ولكن هذا لا يعني أن التفسير الأول كان غير ملائم ؛ وفيزياء نيوتن تجاوزت فيزياء غاليلو، كيبلر ، وكوبرنيكس، ولكن هذا لا يعني أن هذه الأخيرة كانت غير ملائمة. والتعديلات التي جاءت فيها دراسات الانتحار بعد دركهايم لا تعني أن تفسير دركهايم للانتحار في دراسته الكلاسيكية، كان غير ملائم . هذا حدث بالضبط لأن الأول كان ملائماً . أما الأغلوطة الثانية، فإنه قول يتجاهل دراسات سابقة كثيرة كدراسات لوبون، هونتر، سوروكين، بربيتون، مثلاً ، كانت ملائمة جداً في إدراك الثورة. أما الأغلوطة الثالثة، فإنه قول يوحي أيضاً أن التفسير الملائم يجب أن يدرك أية حاجة لتفسير، لتعديل أو تغيير آخر.

الأحزاب الثورية، ابتداء من اليعقوبية في الثورة الفرنسية، كانت كلها أمثلة على الحزب الثوري . لهذا كان من الضروري دراسة وتحديد طبيعة هذا الحزب كظاهرة ثورية عامة، فالأرضية المشتركة التي تلتقي فيها هذه الأحزاب، والتي يمكن بالانطلاق منها إدراك التاريخ الحديث من زاوية معينة. هذا الإدراك الخاص يترتب طبعاً على الأهمية الكبرى التي مارستها الثورة والأحزاب الثورية ابتداء من الثورة الإنكليزية في القرن السابع عشر في صنع هذا التاريخ.

الحزب الثوري لا يظهر في فراغ ، أو كنتيجة لرغبات شخصية ملحة، بل ينتج عن سيرورة تكون قد خلقت الوضع الاجتماعي السياسي الثقافي الملائم له ، وجردت الطبقة السياسية والنظام الذي تمثله من الشرعية والقدرة التاريخية على الاستمرار. هذا التغيير الجذري ، تغيير "الكمية إلى نوعية"، يمكن أن يتحقق فقط نتيجة انتقال إلى طور مختلف نوعياً في نمو أو تقدم الإنسان . هذه القفزة النوعية التي تحققت في ظهور الحداثة والمجتمع الحديث هي التي هيأت لظهور الحزب الثوري كظاهرة تاريخية، كأداة في تطويع التحول الاجتماعي التاريخي للإرادة الإنسانية.

من المعترف به في عالم الأعمال التجارية والاقتصادية أن القصد الجيد لا يعني شيئاً إن كانت طريقة تحقيقه سيئة، هذا ينطبق بقوة أكبر على العمل السياسي، عادياً كان أو كبيراً، إصلاحياً كان أو ثورياً. الحركات الثورية كانت ترجع إلى الحزب الثوري كوسيلة في تحقيق مقاصدها بالضبط لأنه كان هذا النوع من الوسائل الضرورية التي تفرض وجودها في أوضاع التذرر الاجتماعي والنفسي التي ظهر فيها في المجتمع الحديث، الإنسان الحديث لا يريد المعرفة كي يدرك أولاً سر الطبيعة، معنى التاريخ، أو طبيعة المجتمع، إنه يفضل المعرفة التي تمكنه من تحقيق سيادته على الطبيعة، في التاريخ والمجتمع، وعلى الآخرين، كما يضيف باحثون آخرون عديدون. المعرفة العلمية التي كانت تعني الحداثة وفرت له ذلك بشكل جذري جديد.

هذه الحداثة، هذه المعرفة، كانت بالتالي تعني أن سيادة الإنسان على وسطه وذاته كانت تزداد مع الوقت. ففي الصعيد البيولوجي، مثلاً ، "قاد التطور" كما كتب جوليان هكسلي، إلى سيطرة أكبر على الوسط، استقلال أكبر عن تحولاته ومصادفاته، وإلى درجة أكبر من الفردية. إنه قاد أيضاً إلى زيادة في القوى العقلية- كفاءات أكبر في الحصول على المعرفة وتنظيمها، وفي التمرس الشعوري، وتحقيق المقاصد، ثم يضيف "هذا الاتجاه نحو معرفة أكثر تقدماً وأهمية، مشاعر أكثر نمواً، ومقاصد أكثر اتساعاً ، استمر في الصعيد الإنساني، ولكن بأساليب مختلفة ونسبة أكثر تزايداً . ولكن إلى هذا كله أضيف اتجاهاً آخر - وهو كفاءة متزايدة في تقدير القيم، تقدير التجارب التي لها قيمة في ذاتها، اعتماد المعرفة كأساس، العمل في ضوء قصد ما، وادخال القيم الأخلاقية في سيرورة التطور الاجتماعي ذاتها " ؛ ثم يضيف "إن التعقيد في مرحلة التطور العضوي (الذي يشمل أيضاً التطور الإنساني) يستمر على الازدياد ، ولكن مقاييس أخرى تصبح أكثر أهمية- وخصوصاً القدرة على السيطرة على أجزاء أخرى في الكون، وازدياداً في درجة الاستقلال عن الوسط ؛ ولكن في اطواره الأخيرة يصبح المقياس السائد كفاءة أكبر في تحقيق المعرفة، في المشاعر والمقاصد، وخصوصاً الكفاءة في الإفادة من التجربة" .

هذا يعني أن الفكر الذي يرتفع إلى صعيد التاريخ حالياً ، الفكر الذي يستطيع أن يعمل في ضوء العقل الحديث فلا يقف متخلفاً عن التاريخ كما يصنع نفسه، هو الفكر الذي يكون قادراً أن يحقق هذا الإدراك الحديث، أي العلمي، للواقع الذي يتعامل معه. الفكر العربي كان، فيما يتعلق بظاهرة الحزب الثوري، متخلفاً عن هذا الإدراك، كما كان متخلفاً عنه في القضايا الأساسية الأخرى .

أن نقرر كيف يجب أن نعمل، يجب، بكلمة أخرى، أن ندرك ما يمكن وما لا يمكن أن نعمل، وهذا يفرض الرجوع إلى هذا الإدراك الحديث، أو العلمي ، والعمل به. إن إدراك ظاهرة ، مشكلة ما ؟ الخ... هو الخطوة الأساسية الأولى لتخطيط بنّاء في مواجهتها؟ كيف نفسر أوضاع موضوعية معيّنة، أو حالة تاريخية ما، قد لا تكون أكثر أهمية من الأوضاع أو الحالة في ذاتها . الفرد قد لا يكون قادراً بأن يسيطر على وضع معين يجد نفسه فيه، ولكنه يملك القدرة بأن يسيطر على رده نحوه . ولكن لكي يكون هذا الرد فعالاً ومثمراً يجب أن يرجع إلى هذا الإدراك ويعمل به. ولكن هذا الإدراك يعني الرجوع إلى الظاهرة التي ينشغل بها ، فيدرسها كظاهرة موضوعية، في الوقائع التي تمثلها كي يستدل فيها على الاتجاهات أو العناصر الواحدة التي تكشف عنها. إنه دراسة موضوعية للخاص بغية الكشف عن العام الذي يتكرر فيه وينظمه.

الحداثة كانت تعني منذ البداية استخدام العقلانية العلمية وامتدادها إلى جميع العلوم الحديثة، من الاقتصاد إلى علم التحليل النفسي؟ الخ ... ومنها إلى جميع جوانب الحياة الفكرية.

العلم يمتد إلى الواقع الموضوعي- الاجتماعي، السياسي، الثقافى ، النفسي ، التاريخي، الخ ... إنه عالم الظواهر الموضوعية، ويمكن التدليل عليه كعالم موجود. ثم هناك عالم القيم ، عالم ما يجب؟ الحزب

الثوري يمثل أولاً هذا العالم، ولكنه يعتمد على ما هو موجود، الوقائع التي يتشكل منها، القوانين أو الاتجاهات والانتظاميات الموضوعية التي يكشف عنها في العمل على تحقيق المقاصد والمثل العليا التي يتطلع إليها.

بما أن العلوم الطبيعية والاجتماعية ترتبط بهذا الواقع لا تتجاوزه، وتقبك بالتالي حدودها، حدود المعرفة العلمية، فإنها حققت تقدماً متواصلاً هائلاً ، في حين أن الميتافيزيقيا لا تزال تدور على ذاتها حول الأسئلة نفسها وتخرج منها بإجابات مماثلة موقتة. ولكن هذا لا يعني أن الميتافيزيقيا غير ضرورية ومن دون فائدة. استمرارها بهذا الشكل يدل بوضوح على فائدتها وضرورتها ؛ فالإنسان يحتاج إليها لأنها توفر له إجابات عن تساؤلات أساسية حول وضعه في التاريخ، العالم ، والكون ، وفي تساؤلات لا يستطيع تجنبها. ثم يجب أن لا ننسى أن الذين يؤمنون بهذه الإجابات لا يرون أنها موقتة وعابرة .

كل تفسير علمي لظاهرة أو مشكلة ما، يعني اختياراً للوقائع التي ترتبط به وتنسجم معه، وتجاهلاً لأخرى لا تحقق هذا أو تكون خارج موضوعه. المهم هنا هو أن التفسير يعتمد على وقائع تكشف عن اتجاهات وانتظاميات موضوعية يمكن لأي باحث موضوعي التأكد منها. " بما أن الفضولية العلمية هي المصدر الأساسي للتقدم ، فإنها تكون بالضرورة السبب الأساسي للتغيير في العالم ، وفي هذا المعنى تكون النشاط الأكثر ثورية لعقلنا. إن اتجاهها الثوري لا يقتصر على ذلك أو هذا، بل يمتد إلى كل شيء. الروح العلمي لا يكون أبداً في حالة راحة. إنه لا يكون أبداً راضياً بشكل أعمى بما هو موجود، فهو يريد تحسينه إن كان ممكناً ، أو استبداله بشيء آخر. إنه دائماً يهيئ تجارب جديدة حول المجهول. إنه أساسياً روح مغامر" .

العلوم الطبيعية والاجتماعية في وسائل تستخدم في خدمة منطلقات ومقاصد إنسانية عليا، ولكنها لا تكوّنها، فهذه الأخيرة قد تتأثر بهذه العلوم، ولكن وجودها يؤثر أيضاً بالكيفية التي تستخدم بها ؛ أو حتى بالكيفية التي تتجه بها. " إن رجل العلم يشعر ويعمل نحو واجبه، نحو الحقيقة التي يريد الكشف عنها وتحقيقها بطرق يجب علينا الاعتراف بها كطرق أخلاقية. إنه يريد الحقيقة ، ويتجنب الكذب، ولكن حقائقه وأخطاءه ليست بالضرورة ما نعتبره جيداً أو شيئاً من ناحية أخلاقية. العلم، بكلمة مختصرة، يقوم على عنصر قصدي .

إننا نعلم من علم التحليل النفسي، وخصوصاً مؤسسة فرويد، أن النتيجة الحتمية التي تترتب على صدمة نفسية قوية تتحول إلى هيستيريا إن لم يكن من الممكن معالجتها بأية طريقة أخرى ملائمة. غياب العقل العلمي في مواجهة المشاكل والهزائم التي كانت تعترض طريق النضال العربي ، والعجز عن معالجتها بالرجوع إلى هذا العقل، ولكن يعني ردود فعل، و"حلول " منقطعة العلاقة مع الواقع وإمكاناته، وبالتالي يمكن اعتبارها هيستيريا.

الحياة السياسية، الحياة بشكل عام- ليست واضحة وبسيطة، بل غامضة ومعقدة، وبالتالي فإن التفاعل أو التعامل معها بالرجوع إلى عوامل ذاتية، يزيدها غموضاً وتعقيداً ؛ هذا بالإضافة إلى الفشل السياسي الذي يترتب على ذلك الخروج من هذا الغموض والتعقيد يكون بالرجوع إلى العقل العلمي لأنه الطريق إلى إدراك القوى والاتجاهات الموضوعية التي توجه هذه الحياة كما هي، وكما تتغير.

ما يعرفه أو يفكر به الناس حول العالم الخارجي أو حول أنفسهم ليس أبداً الحقيقة النهائية بالنسبة للعلم، المعطيات التي يقبلها كما هي، العلم لا ينشغل بما يفكر به الناس حول العالم، وكيف يسلكون كنتيجة لذلك بل بما يجب أن يفكروا به حول العالم . المفاهيم التي يستخدمها الناس، في الواقع، الطريقة التي يرون بها الطبيعة، هي بالضرورة، شيء موقت بالنسبة للعمل ، وواجبه هو تعديل هذه الصورة، تعديل المفاهيم المستخدمة بطريقة يمكن بها تحقيق تحديد أحسن لمفاهيمنا، وجعلها أكثر صحة حول الأحداث الجديدة .

يجب أن يحل الفكر العقلاني العلمي محل المشاعر والرغبات في مواجهة وادراك المشاكل والقضايا التي تعترض طريق النضال الوحدوي . المسألة ليست القول بشيء، أو بضرورته، بل القيام بذلك بطريقة علمية منظمة، الطريق ليست حدس الشاعر أو الفيلسوف، بل المنهج، العقل العلمي الذي يستطيع به العمل السياسي- سواء كان إصلاحياً أو ثورياً - تطويع الواقع لمقاصده . الفكر الوحدوي بشكل خاص، والفكر العربي السياسي بشكل عام ، سينمو ويتطور ويصبح فكراً عقلانياً علمياً مع الوقت، ولكن المهم هو أن يحقق هذا قبل أن يكون قد فات الوقت، فلا يكون من الممكن عندئذ تجاوز الضعف العربي وتحقيق دولة الوحدة أو خطوة كبيرة نحوها، المنهج العلمي ، " المنهج الصحيح يدعم ويوسع سلطة الإنسان على الطبيعة والمجتمع؟ المنهج يوفر لنا القدرة على التنبؤ بمجرى الأحداث وبالتالي وضعها تحت سيطرتنا". من دون معالجة هذا الضعف يبقى الشعب العربي كما كان حتى الآن منذ مئات السنين، خارج التاريخ، يركض لاهثاً دون جدوى وراء التاريخ، تحت "جزمة" التاريخ، وأقوياء التاريخ.

إن الإمكانات التي يحتاج إليها النضال الوحدوي للتغلب على هذا الوضع، على هذه "الجزمة"، متوفرة لنا كشعب وأرض ، ولكن يجب أن نتميز بالقدرة على تغيير أنفسنا ، واستخدام الفكر العلمي كالأداة التي يمكن بها مساعدة النضال الوحدوي على ترجمة هذه الإمكانات ووضعها في خدمة مقاصد التوحيد، والتحرير، والتجديد، التي يلتزم بها. هذا ما يميز حقاً الإنسان كإنسان، وبشكل خاص المناضل في سبيل قضية كبرى تتجاوزه. إن لم يستطع هذا النضال أن يكشف عن هذه الإمكانات، يطورها ويضعها في خدمته، فإن القائلين به- بأي نضال تحريري كان في أي مكان كان- يخسرون ليس فقط نضالهم ومقاصده، بل إنسانيتهم نفسها. اعتماد العقل العلمي والرجوع إليه ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها أو تجاهلها في ذلك إن نحن أردنا حق الانتصار الفعّال للقضية التي تكون قد التزمنا بها.

إن لم يطور المناضل بالعقلانية العلمية نضاله، اعتماده على ذاته، القدرة على مبادرة التاريخ، الإرادة الصلبة الواثقة من ذاتها، ودمج ذلك في نضاله، فإنه يتعرض للخروج من المعركة، لأن هذا النضال لا يكون قادراً على استيعاب الصدمات التي تشكل ظاهرة طبيعية تعترض كل نضال ثوري أو سياسي جدي . هذا الخروج أو بالأحرى هذا الهروب الذى يجد جذوره ، رغم توفر ما قد يحتاج إليه من إمكانات، في لأ عقلانية الوسائل التي يستخدمها، فيكون عاجزاً عن تصحيحها بالعقل العلمي، هو طريق "الجبناء" الذين لا يتجاسرون، أو طريق "الجهلة" الذين لا يفكرون، "الجبناء والجهلة" الذين لا يستطيعون مواجهة التاريخ والصمود ؛ المواجهة التي تحتاج إلى عقلانية العقل، النضج الذاتي، والجسارة الأخلاقية.

في هذا السياق العلمي يجب، كما كان يجب بالنسبة لقضايا النضال العربي الأخرى ، إدانة الفكر السياسي والثوري الذي انشغل بقضية الحزب الثوري، فكان يقول به ويدعو إليه ولكن من دون أن يرجع إلى الوقائع التي تمثله، أي الأحزاب الثورية، فيدرسها كي يكشف عن العام الذي تشارك فيه قبل إعطاء تصوراته وأحكامه حوله، والقول بضرورته. إنه كان، في الواقع ، يقوم بذلك بشكل عفوي طبيعي وكأن هذه الوقائع أو الأحزاب غير موجودة، هذا يدل أن الفكر الذي كان ينقاد إليه يتميز بطبيعة تبشيرية قوية، أي وعي يتجاوز الواقع الموضوعي، يقفز فوقه ويتجاهله وكأنه غير موجود. هذا يعني أنه لا يصح التمييز بين النوايا الصادقة والنتائج في العمل السياسي، وبشكل خاص العمل الثوري، وذلك لأن هذا العمل يبرر وجوده ويجد شرعيته في مقاصد يقول بتحقيقها، يلتزم بتحقيقها، وهو دون هذا التحقيق، أو تقدم واضح أساسي نحوه، يخسر وجوده وشرعيته ؛ وعندئذ يصبح مسؤولاً ، ويجب أن يدان بشكل ما على أعماله والنتائج التي ترتبت عليها، وليس على نواياه ، علاوة على ذلك، إننا كلنا نستطيع رؤية الأعمال، ولكننا لا نستطيع رؤية النوايا.

تصحيح هذه الأعمال يفرض نقلة فكرية جذرية من العقلية التبشيرية إلى العقلية العلمية التي تفرض الرجوع إلى الظاهرة التي تنشغل بها، فتدرسها موضوعياً كي تكشف فيها عن العام الذي ينظم أو يتكرر في الخاص. هذا المبدأ العلمي الاساسي البديهي تقريباً كان غائباً تماماً عن كتابات الذين انشغلوا بفكرة الحزب الثوري، وضرورة تشكيله. الفكر العلمي يجب أن يكون قادراً بأن يكشفه عن التحولات والاتجاهات التاريخية التي كانت تفرز أو تهيىء لنتيجة ما. تجعل هذه النتيجة ممكنة، أو غير ممكنة. المجتمعات والأنظمة والحركات السياسية والأمم الحية الفعالة تاريخياً ، تنفتح للتغيير والتحول، للعقل العلمي الحديث الذي يوفر أهم أداة تمخض عنها التاريخ في إدراك وإحداث التحول والتغيير. من دون هذا النوع من الانفتاح على الواقع التاريخي، كيف يصنع نفسه والدروس الموضوعية التي يكشف عنها فتفيد منها، فإن هذا الواقع يسحقها بحركته ويحولها إلى مادة هامشية تعيش خارج التاريخ. إن أحد المفكرين المعروفين، أدموند بورك، كتب في القرن التاسع عشر " كي ينتصر الشر علينا، من الضروري فقط أن لا يعمل الرجال الطيبون شيئاً " ممكن إعادة صياغة هذه العبارة بالقول " كي ينتصر الشر علينا، من الضروري فقط أن لا نستخدم عقولنا بطريقة موضوعية أو علمية في إدراك الظاهرة أو المشكلة التي ننشغل بها، في مواجهة التحدي أو التحديات التي تحيط بنا، وفي استخدام وتعبئة الإمكانات التي تتوفر لنا.

الوضع السياسي العربي، النضال الوحدوي الذي يحتاج إليه في استقامة سيره، أصبح في حالة سيئة تزداد سوءاً مع الوقت. العقل، المنهج العلمي السليم، هو الأداة في تغيير طبيعة الوعي المزور، طبيعة العقلية التبشيرية، التي تعبّر عنه. هذه الدراسة تجد قاعدتها في هذا المنهج العلمي . إنها دراسة تعمل على تصحيح جذري للمفاهيم التي رافقت الكتابات والأقوال التي دعته إلى تكوين هذا الحزب كأداة في تحقيق الثورة أو دولة الوحدة . الحزب الثوري يكون- عندما تصبح القواعد والأوضاع التي كانت تلازمه كظاهرة تاريخية- أداة فعّالة وضرورية في تغيير إيجابي جذري لهذا الوضع السياسي في خدمة المقاصد العربية المستقبلية ، وفي طليعتها دولة الوحدة، أداة تعبئة إمكانات الشعب وموارد الأرض التي تحتاج إليها هذه المقاصد. ولكن كي يصبح هذا، يجب أن تصبح هذه الأوضاع والقواعد.

هذه الدراسة تقوم بدراسة الأحزاب الثورية التاريخية كي تكشف بالضبط عن هذه الأوضاع والقواعد. القصد هو طبعاً كي نرى إن كان يمكن ظهور هذا الحزب الثوري في مجتمع كالمجتمع العربي، أو بالأحرى لماذا لم يظهر هذا الحزب هنا، وفي مجتمعات أخرى مماثلة.

الحزب الثوري

الحزب الثوري كظاهرة تاريخية حديثة

هذه دراسة ترمي إلى إدراك الحزب الثوري كظاهرة تاريخية، لأن هذا الإدراك ضروري في إدراك التحولات التاريخية التي صنعت التاريخ الحديث، إنها بالتالي دراسة لا تدعو ولا ترفض هذه الظاهرة لأي قصد كان، بل تحاول أن تفسرها كظاهرة تاريخية موضوعية. هذا يعني أنه من الممكن للمحافظ أو الرجعي، للثوري أو الإصلاحي، أن يرجع إليها لحماية قضيته أو لإدراكها، الاول لمقاومة العمل الثوري، والثاني لمساندة هذا العمل. إدراج فكرة أو ظاهرة ما في سياق تاريخي ما، أو كواقعة موضوعية تجد مكانها فيه، لا يعني في ذاته تأييدها أو التنكر لها ، الإعجاب بها أو النفور منها.

الفكر العلمي يفرض أن نفتش عن طبيعة الحزب الثوري في الوقائع التي يعود إليها، الوقائع التاريخية التي يعبر عنها، في مجراها وتحولاتها، ولهذا كان عنوان هذه الدراسة " طبيعة الحزب الثوري كظاهرة تاريخية". إنها دراسة تدل أن الأحزاب الثورية التاريخية تكشف عن نموذج أساسي عام تشارك فيه، رغم ما يمكن أن يكون بينها من اختلافات خاصة، وذلك من حيث الأوضاع التي تظهر فيها، البنية التي تتكون

منها ، الأخلاقية التي تشارك فيها، السيرورة التي تكشف عنها ، القيادات التي تتقدمها ، للنتائج التي تنتهي إليها " الخ... هذا ما يفترضه، كما أشرنا أعلاه، العقل أو المنهج العلمي وهو اكتشاف العام في الخاص، أو بكلمة أخرى، دراسة الوقائع الفردية حول ظاهرة معينة قصد الكشف عن العام الذي يتكرر فيها وينظمها كظاهرة.

هذا ينطبق على ظواهر تبدو وكأنها تعود إلى أسباب ذاتية فردية صرفة ، كالانتحار مثلاً . الأمراض النفسية، للزواج، وانهيار الزواج، للحب أو الصوفية ؛ الخ... ففي كل منها، ومن مثيلاتها، تتكلم عن نمط عام يمثل الهوية المشتركة التي تربط بينها، وتخترق وقائعها الفردية وتتجاوزها، فنرجع إليها في تفسير هذه الأخيرة وإدراكها.

هذه الملاحظات تقول، بكلمة أخرى ، إن الحزب الثوري يجد جذوره في بنية نفسيّة، عقلية وإيديولوجية خاصة تنشأ عن وضع اجتماعي تاريخي خاص. إنه ليس نتيجة خيار فكري أو قرار نصل إليه عن طريق التحليل الموضوعي . إنه ، على العكس ، مخرج من وضع كان سببه المجتمع نفسه وقد تحوّل بشكل يوجه إليه. الدراسة لا تعني بالتالي، مباشرة أو غير مباشرة، ضمناً أو صراحة، أن هذا الوضع ظاهرة سيئة أو جيدة بسبب النتائج التي قد تترتب عليه. إنها فقط دراسة تشغل بظاهرة مهمة جداً في إدراك التاريخ الحديث، وهي ضرورية لهذا الغرض. فالحزب الثوري كل قائم في ذاته، مستقل عن الأفراد الذين يتكوّن منهم . إن تفاعل هؤلاء نفسه في وضع اجتماعي تاريخي متماثل يولّد هذا الكل الجديد الذي يتميز بإرادة، بهوية خاصة به. الاحزاب الثورية تستمد وجودها- رغم اختلاف المضامين- في المصدر نفسه، ولهذا يمكن الكشف عن الخصائص الواحدة التي تشارك فيها. المهم والأساسي علمياً، ليس الإشارة إلى وجود واقعة أو ظاهرة ما، بل القيام بذلك بطريقة علمية متسقة، جامعة لجوانبها الأساسية، والاعتماد على الوقائع في ذلك . هذا ما ترجو هذه الدراسة تحقيقه. تحديد هوية الحزب الثوري على هذا الصعيد العام يساعدنا ليس فقط على إدراك طبيعة هذا الحزب ، بل على إدراك التاريخ الحديث ذاته من هذه الزاوية.

هذه الملاحظات تشير أن إدراك طبيعة الحزب الثوري كظاهرة حديثة يعني دراسته كظاهرة تاريخية تعود إلى سياق تاريخي خاص وتترتب عليه. إن البحث عن "الحقيقة"، تحوّل الحياة الفكرية، الإبداع الفكري، التطور الحضاري، أو الثقافي، كل من هذا يشكل سياقاً فكرياً مترابط الحلقات أو بالأحرى يرتبط بسياق فكري تاريخي يجد مكانه فيه . لهذا نرى عادة أن المفكر يذكر ليس فقط سياق الموضوع الذي ينشغل به كظاهرة عامة ، بل المفكرين السابقين الذين تأثر بهم . إن آخر مفكر رجعت إليه، مثلاً، وهو فرديناند تويس، وكان ذلك منذ بضعة أيام، يذكر المفكرين الثلاثة الذين تأثر بهم، وهم هنري ماين، أوتو غياركه، وكارل ماركس . الرجوع إلى السياق بشكل ما ضروري بالتالي لإبراز موقع وضرورة الموضوع بالنسبة لما صدر حوله ، والحاجة إليه- إن أمكن- لأنه يعبّر عن أطروحة تضيف شيئاً جديداً إليه. مثل معروف على أهمية هذا السياق ودوره هو تنبيه ماركس إلى المصادر الفكرية التاريخية الثلاثة لنظريته، وهي الفلسفة الإلمانية وخصوصاً هيجل، وفيور باخ، الفكر الاشتراكي الفرنسي (وخصوصاً فوريه وسان سيمون)، والفكر الاقتصادي الإنكليزي الكلاسيكي، وخصوصاً آدم سميث، ريكاردو، وجيفون؟ أو تنبيه الفيلسوف الإنكليزي هوايتهد بأن الفلسفة الغربية كانت حاشية على فلسفة أفلاطون.

هذه الملاحظات تدل أن الرجوع إلى السياق الفكري التاريخي للظاهرة التي ننشغل بها ضروري، لأن استيعاب السياق، التحول التاريخي ، الذي تمخض عنها، ضروري للعمل الفكري الجدي والخلاق؛ لاختيار أطروحة سليمة أو جديدة للدراسة ؛ للتدليل على موقع الدراسة أو الظاهرة التي تنشغل بها من الإنتاج الذي يكون قد صدر حولها ؛ للكشف عن ضرورتها والحاجة إليها .

بعد تحديد ما تعنيه الدراسة بالظاهرة التاريخية أو بالأحرى بالحزب الثوري كظاهرة تاريخية، يجب تحديد ما تعنيه بالحزب الثوري . رغم تعدّد الأحزاب الثورية الحديثة، أو حتى تعدّد المعاني التي قد تعطى لها، هناك تحديد عام يمكن الرجوع إليه ، والالتقاء فيه عندما نتكلم عنها. هذا التعدّد يمكن أن يرافق، كما أشرت أعلاه، أي مفهوم عام حول أية ظاهرة نرجع إليها، ولكن هذا لا يعني أننا لا نرجع، أو لا يمكن أن نرجع إلى تحديد واحد نلتقي فيه . فهذا يحدث باستمرار .

بالنسبة لموضوعنا، كلمة ثورية أو ثورة، هناك معنى واحد متماثل، وهو أن الكلمة تشير إلى تحوّل يحدث بشكل جذري وأساسي، بأن أشكال أو بنى اجتماعية ، سياسية، إيديولوجية سابقة أخذت تزول، أو يجب أن تزول، لأنها أصبحت مختلفة عن حركة التاريخ التي أخذت تفرز عناصر وتحوّلات جديدة تستدعي بنى أخرى تمثلها وتتجاوز بها البنى الموجودة أو السابقة. حتى عندما نتكلم، مثلاً ، عن تغيير تقني جديد في الطب كالقلب أو الصمام الاصطناعي، أو في المواصلات، كالسيارة أو الطيارة ؛ الخ... نتكلم عن ثورة، ويصح أذ نتكلم عنه كثورة، لأنه يعني تغييراً جذرياً أساسياً في صعيد معين، تغييراً ينقل إلى مستوى تقني أعلى ، إننا نتكلم عن الثورة الزراعية ، الثورة الصناعية ، الثورة الديموقراطية، الثورة الفكرية، الثورة الجنسية ، الثورة المعلوماتية ، الثورة الفضائية لأنها كلها تعني تغييراً جذرياً .

هذا الاستخدام الواسع للكلمة دفع أحد كبار المؤرخين للثورة أو الظاهرة الثورية بأن يكتب أن كلمة الثورة هي من أكثر الكلمات فضفضة . ولكن نقد كهذا يتجاهل واقعتين أساسيتين؛ أولاً ، أن هذه "الفضفضة" ترافق، كما رأينا سابقاً ، المفاهيم السياسية، والثقافية والاجتماعية، بشكل عام ؛ وثانياً ، أنه رغم هذا الاستخدام الواسع، هناك معنى أساسي مشترك يخترق هذه المعاني ، وهو تغيير جذري ينقل الظاهرة، التي يتم الحديث حولها، من نموذج إلى نموذج آخر يختلف جذرياً عنه. هذه الملاحظة حول طبيعة الثورة وما تعنيه كانت ضرورية لأنها تشكل مدخلاً لنا في إدراك طبيعة ودور الحزب الثوري ، وما يعنيه، ويجب أن يعنيه، من تغيير جذري ، تسمية كهذه لا تنطبق ، مثلاً ، على حزب غايته إسقاط جماعة أو قيادة حاكمة من دون تغيير طبيعة النظام السياسي نفسه. الحزب الثوري كان يعني باستمرار أكثر من سلطة سياسية صرفة. إنه مركب من المقاصد العليا التي ترمي إلى تغيير طريقة التفكير، العمل ، والمشاعر نفسها، لأن القصد الأعلى هو تغيير وتجديد المجتمع نفسه، إعادة تكوينه من الجذور.

الحزب الثوري يعني ثورة مترابطة الجوانب، خلق نظام اجتماعي ، سياسي ، إيديولوجي جديد، وهذا يفترض قيام سلطة مركزة كنتيجة لطبيعتها، لجدليتها الخاصة : لهذا " كانت الثورات الاجتماعية تكذب الآمال الليبرالية أو الديموقراطية لكثيرين من المشاركين فيها ، لأنها كانت تقود إلى دول قوميّة أقوى- أكثر مركزية ، بيروقراطية وقسرية- من الأنظمة القديمة التي تحل محلها " .

الحزب الثوري لا يظهر من فراغ ، أو من رغبات ذاتية قوية بوجوده ، إنه ، على العكس ، ينتج عن تحوّل اجتماعي سياسي إيديولوجي تاريخي، ينزخ الشرعية عن النظام الموجود بالنسبة لعدد كبير من الناس ، ويدفع إلى تحييد أو لا مبالاة عدد أكبر. هذا التحوّل الذي كان يفرز الأوضاع التي تستدعي ظهور الحزب الثوري هو موضوع هذه الدراسة.

ظهور الحزب الثوري كظاهرة تاريخية حديثة

أوستروغورسكي، المؤرخ المعروف للأحزاب السياسية، كتب أن بداية الحزب السياسي الحديث كانت في أعقاب الثورة الأميركية، في الحزب الذي خلقه في ذلك الوقت توماس جافرسون كأداة للنجاح في الانتخابات السياسية. و لكن هذه الظاهرة ترتبط ، ككل ظاهرة تاريخية، بسياق تاريخي عام يرجع في الواقع، إلى روما حيث كان الأخوان جرامشي ، ومن ثم يوليوس قيصر فيما بعد، ينظمون أتباعهم من

الجماهير ضد الأوليغارشية في روما. "جافرسون خلق ما يمكن تسميته نسخة انتخابية حديثة عن القيصرية، وهذا الإجراء أصبح السمة المميزة للحزب السياسي الشعبي الحديث " ٠ المصدر السابق، المؤرخ هويلر، يضيف أن الحزب السياسي الشعبي الذي خلقه جافرسون كان يعني دولة جديدة تبرز من داخل الدولة السابقة ، وأنه قام بحملة انتخابات بين الشعب يكسب السلطة الشعبية لإزاحة السلطة الحاكمة، وأن هذا الحزب " كان حركة ثورية صحيحة، وهذا شيء تحقق الاعتراف به مباشرة" . ولكن هذا القول يكشف عن تناقض كبير. فالخلاصة التي انتهى إليها تتعارض تماماً مع المقدمة التي قادت إليها. فإن كانت الغاية من الحزب هي أن يكون أداة انتخابية أو دولة في قلب الدولة فقط ، فإنه لا يمكن أن يكون حزباً ثورياً ؛ وهذا واضح مما تقدم وسيكون أكثر وضوحاً - هذا إن احتاج إلى ذلك- في الفصول القادمة.

الحزب الثوري الحديث ظهر في مجرى الثورة الفرنسية ، في "التنظيم " الذي أقامته اليعقوبية في شكل نواب جمهورية موزعة في باريس، وغايتها خدمة الجمهورية الجديدة والدفاع عنها. هذه النوادي استمرت من عام ١٧٨٩ إلى عام ١٧٩٤ كنواد نشيطة فعالة. هذا التنظيم لم يكن "منظماً " كالأحزاب الثورية الأخرى التي ظهرت فيما بعد، ولكنه كان مثلها حزباً ثورياً في العناصر الأخرى ، الحزب الثوري الحديث الأول.

إننا، ولا شك، كائنات تاريخية يدفعنا التاريخ بعمق، التاريخ كسياق تاريخي مترابط يمتد إلى بداية التاريخ، بله إلى ما قبل التاريخ. ولكن هذا التاريخ يكشف عن نقاط فاصلة ، عن منعطفات تتميز بتحولات خلاقة تفصل بينها وبين ما تقدمها، وهيأ لها. القرن الثامن عشر، مثلاً ، وخصوصاً العقلانية التي اقترن بها ، والثورة الفرنسية التي قادت إليها، واليعقوبية التي تمخضت عنها، يوفر لنا مثلاً واضحاً عن منعطفات كهذه. لهذا كان من الطبيعي الرجوع إلى هذه اليعقوبية كأول مثل على ظهور الحزب الثوري الذي اقترن بها.

فلاسفة العقلانية الفرنسية ودعاتها في القرن الثامن عشر استخدموا كل وسيلة ممكنة في نقل الأفكار الجديدة إلى الشعب بشكل عام . العقلانية ، والثورة العلمية، والروح الفلسفية التي جاءت من عصر النهضة، أيقظت كلها حساسيات جديدة بين رجالات الفكر والمثقفين في القرن الثامن عشر، ولكن هذه الأفكار اتخذت سريعاً اتجاهاً ثورياً جديداً .

في الثورة الفرنسية، الحروب الثورية، صعود نابليون وسقوطه، نجد التحولات التاريخية التي صنعت التاريخ لأوّل مرة تجربة جماهيرية ثورية، وعلى صعيد أوروبي أيضاً . ثم إن تعاقب هذه الثورات يعطيها خاصة مميزة نوعياً ؛ فهي تجعل شخصيتها التاريخية أكثر وضوحاً مما قد تكون عليه في أمثلة فردية منعزلة.

بما أن هذا كله كان يعني نتائج كثيرة مهمة ، أعمال ومخططات قصدية مترابطة ، كان من الضروري ظهور جماعة منظمة و مسؤولة عن ذلك ، اليعقوبيون كانوا هذه الجماعة . هذا لا ينكر طبعاً وجود جماعات وتيارات أخرى ذات اتجاهات سياسية وإيديولوجية خاصة بها ، ولكن ان اليعقوبيين كانوا يمثلون النمط السياسي والإيديولوجي الذي ساد اتجاه الثورة والنتائج التي ترتبت عليها . "هذا يعني أن اليعقوبية كانت مكوّنة للواقع ، للنظام الاجتماعي السياسي الجديد. هذا كان بداية أصبحت خاصة أساسية لكل حزب ثوري " . لهذا نجد " أن جمعية أصدقاء الدستور، المعروفة أكثر باسم "نادي اليعقوبيين "، أصبحت سريعاً المركز العصبي للثورة " . هنا يجب التنبيه أن هذه الخاصة ، أي النوادي التي تصبح أداة للثورة، لا تقتصر على الثورة الفرنسية، بل تمثل خاصة ثورية عامة رافقت الثورات الحديثة. "التنظيم اليعقوبي كان يقوم على النوادي اليعقوبية التي كانت مراكز العمل الثوري، وهذه النوادي كانت مماثلة

للمستقلين الإنكليز في الثورة الإنكليزية، للسوفيات الروسية في الثورة الشيوعية، وللجان المراسلة في الثورة الأميركية" .

إن إحدى النتائج الأهم التي ترتبت على الثورة الفرنسية كانت ظهور فكرة الثورة نفسها. قبل ١٧٨٩، كانت هذه الكلمة تتخذ معاني مختلفة، ولكنها كلها كانت بعيدة جداً عن معناها فيما بعد ، وهو حدوث تغيير جذري للنظام الاجتماعي السياسي ، والإيديولوجي الموجود ، بالإضافة إلى ذلك ، الثورة أخذت تعني إسقاط هذا النظام بمشاركة من الشعب، بثورة شعبية، وهذا كان يدل في دوره، أن الثورة تقترن بسيادة الشعب. هذا كان يعني، أيضاً وبالرجوع إلى الثورة الفرنسية، أول ثورة في التاريخ بهذا المعنى، ظهور الحزب الثوري كأداة ضرورية في تحقيق الثورة.

الجماعات الثورية في القرن الثامن عشر كانت بعيدة عن العنف ، لا تقول به في مخططاتها، وأعلام الفكر والسياسة فيه، كانوا يتوقعون العقلانية أو عصر التنوير أن يقوم بعمله ويحقق مقاصده ، أولاً، في عقول الناس وقلوبهم بطريقة تجعل الانتقال إلى العالم الأخلاقي الجديد سلمياً وتدريجياً . ولكن الثورة الفرنسية التي تمخضت عن اليعقوبية ، وما يسمى بمرحلة الإرهاب التي رافقتها، أضافت بعداً جديداً جذرياً من الآمال ، والمخاوف ، والتوقعات للأخلاقية السياسية الحديثة.

قبل الثورة الفرنسية كانت "الثورة"- هذا إن صح إطلاق هذه التسمية عليها- تمثل انتفاضات وانفجارات شعبية تلقائية، غير منظمة أو مبرمجة قصد إحداث تغييرات جذرية كهذه. إنها كانت أحداث تحدث للدولة والمجتمع ولكن من دون تخطيط معيّن ينظم حدوثها ، أو النتائج التي مكن أن تترتب، أو يجب أن تترتب عليها. إنها كانت "صدفة" تاريخية تحدث هنا وهناك ، ولكن من دون أن تخلق تقليداً ثورياً يوحي بالثورة ويمكن الرجوع إليه في تنظيم الثورة . الثورة الفرنسية بدأت بهذا الشكل ، ولكنها تغيّرت سريعاً إلى النمط الجديد الذي أخذت تمثله. إن تدخل الشعب الباريسي بشكل مستمر في مجرى الثورة ، من الاستيلاء على الباستيل عام ١٧٨٩، إلى خلع الملك عام ١٧٩٢، ومروراً بنقل الملك من فرساي، إلى تطهير جمعية العهد من الجيروند عام ١٧٩٣ ؛ الخ... هذا كله- رغم أنه لم يكن يعبّر عن تخطيط سابق- تمخض عن التصور الجديد للثورة. فالثورة أصبحت تقترن بالوعي الذي يخطط لها ويبرمجها وبظهور الإنتليجنسيا المسؤولة عن ذلك. إنها أصبحت عملاً يرمي إلى إقامة نظام اجتماعي سياسي إيديولوجي جديد. ولكن كي يمكن ويصح هذا عملياً كان من الضروري أن تظهر فكرة الحزب الثوري كأداة لها في تحقيق ذاتها . قبل الثورة الفرنسية كانت عبارات كالحزب الثوري، الثوري، الإيديولوجيّة، مثلاً ، غير معروفة. كان يمكن أن تكون هناك ثورات ولكن ليس في المعنى الجديد. " إن مفهوم الإرهاب الثوري، وما وصفه فيما بعد الماركسيون، كالحزب الطليعي الثوري ، كانا كلاهما من نتاج الثورة الفرنسية بين عام ١٧٨٩ " وعام ١٧٩٤ . لهذا لم يكن من قبيل الصدفة أن يكون اليعقوبيون بين الذين مدحهم لينين بشكل خاص قبل الثورة وبعد الثورة .

هذا كله كان ممكناً نتيجة ظهور وتطور المجتمع الحديث. لهذا يمكن، بله يجب القول إن مفهوم الحزب الثوري كان ظاهرة ثورية تقترن بالحداثة، تطورات هذا المجتمع، وتترتب عليها. ليس من قبيل الصدفة أن يكون هذا الحزب قد ظهر لأول مرة في التاريخ في الوقت الذي ظهر فيه، وفي المكان الذي تحقق فيه.

القرن التاسع عشر شاهد ظهور أحزاب وجماعات ثورية عديدة، ولكنها لم تنجح في إسقاط نهائي للنظام القائم وتشكيل نظام جديد نقيض ثابت يحل محله. هناك أيضاً ثورات حدثت وخصوصاً في باريس، ثورة كومونة عام ١٨٧٠ - ١٨٧١، ثورة بداية الثلاثينات. وثورة ١٨٤٨، أهمها، التي كانت ثورة عامة انتشرت في أنحاء أوروبا. ولكن هذه الثورات لم تنجح في إسقاط نهائي للنظام ككل ، وإقامة نظام جديد

نقيض ثابت مكانه. هكذا كان يجب انتظار القرن العشرين ، الحزب الشيوعي وثورته في روسيا عام ١٩١٧، لظهور هذا النظام الجديد النقيض الثابت.

النقطة الأساسية هنا، التي يجب الانتباه إليها وتوكيدها، هي ظهور الحزب الثوري كظاهرة تاريخية أساسية منذ نهاية القرن الثامن عشر، اتساعها وتكاثرها بعد ذلك ، وليس الاستيلاء على السلطة وإقامة نظام جذري جديد. فهذا قد يحدث أو لا يحدث، ولكن الحزب، أو بالأحرى الأحزاب الثورية هي التي تشكل كل الظاهرة الثورية الحديثة وتدل عليها.

الحزب الثوري المتكامل الهوية الثورية الذي نجح في نهاية العقد الثاني من القرن العشرين، وذلك على خلاف الأحزاب الثورية العديدة في القرن التاسع عشر، باستلام السلطة عن طريق الثورة، ممارستها، وإقامة نظام جديد ثابت مستمر، كان الحزب الشيوعي في روسيا. الحزب الليبرالي الثوري تقدم على الأخير باستلام السلطة كتعبير عن ثورة ليبرالية، ولكنه مارسها لبضعة أشهر فقط قبل سقوطه أمام الحزب الشيوعي.

الحزب الشيوعي الروسي مارس وحده السلطة واحتكرها لنفسه، اعتبر أنه يمثل النخبة أو الطليعة الثورية بين الشيوعيين وللشيوعيين ، كان يحافظ على عضوية محدودة نتيجة تخطيط مقصود، ويفرض فترة امتحان يجب أن يمر بها الذين يقدمون طلب الانتساب للحزب. هذا المفهوم الذي قال به لينين حول ضرورة حزب يمثل طليعة قيادية للشيوعيين ، أقلية نخبوية تكرس ذاتها للثورة وتعيش لها، هذا المفهوم غير موجود عند ماركس ، وهو يتناقض، في الواقع ، ومن عدة جوانب، مع فكرة البروليتاريا، والثورة البروليتارية التي كانت أساسية بالنسبة للأخير.

ولكن رغم أن هذه الفكرة، فكرة أقلية أو نخبة قيادية تقود العمل الثوري، هي فكرة لم يدع إليها ماركس، فإن لينين خلص إلى الاقتناع بأن جماهير من الأميين تنشغل أساسياً بمقاصدها، وحاجاتها الاقتصادية، تتميز بقدر قليل من الوعي السياسي، وبأقل من ذلك من الوعي الثوري، لا تستطيع أن تحقق الثورة . لهذا يجب على البروليتاريا، كما استنتج لينين ، أن تجد قيادتها في الحزب الشيوعي الذي يحقق هذا الوعي الضروري، ويمثل الجزء الأكثر تقدماً فيها .

الشيوعيون في العشرينات، وخصوصاً في الثلاثينات و كنتيجة للأزمة الاقتصادية الكبيرة التي أصابت النظام الرأسمالي في بدايتها ، شعروا بتفوق أخلاقي تجاه الذين لم يكونوا شيوعيين . لم يكن هناك أي شك لديهم بأنهم كانوا ورثة الجماعات الدينية التي كانت تريد جنة جديدة في أرض جديدة. إنهم انتصروا للمجتمع الوحيد الذي عرف كيف يخلقها مادياً ، روسيا السوفياتية، وذلك في وقت كانت فيه جميع المجتمعات الأخرى تتحطم . إن ريتشارد كروسمان ، عضو في البرلمان البريطاني ، ومن الذين ناصروا الثورة الشيوعية في روسيا في ذلك الوقت ، كتب بأن الجيل الذي اتجه إلى هذه الثورة آنذاك كان مستعداً بأن يضحي بالحريات البورجوازية رغبة منه في هزيمة الفاشية ، وأن انتماءه للحزب الشيوعي كان يجد جذوره في اليأس، اليأس من القيم الغربية .

لينين اعتمد، في الواقع، على الهزيمة الساحقة في الحرب العالمية الأولى ، وما ترتب عليها من نتائج نفسية واجتماعية، وليس على توقعات وتفاسير ماركسية كطريق إلى استلام السلطة. الحزب كان أداة نظمها لينين كطريق إلى هذه الغاية، كإعداد لاستخدام هذه النتائج، التي كانت تعني درجة عليا من التذرر.

الحرب العالمية الأولى دمرت، كأول حرب استخدمت الوسائل العسكرية الحديثة، ليس فقط النظام القيصري بل المجتمع المدني نفسه، فالأرستقراطية ، والكنيسة، والجيش، والجامعات، والمؤسسات

الحكومية " الخ... خسرت الكثير من قوتها ومكانتها فأصبحت ضعيفة لا تستطيع أن تستوعب نتائج الحرب وتتجاوزها . "المجتمع المدني اختفى تماماً ونهائياً . المزارعون رجعوا إلى اقتصاد طبيعي، التضخم دمر العملة والمقايضة. الإنتاج الصناعي توقف، والعمال هجروا المدن الجائعة، ورجعوا إلى قراهم . الجنود الذين هربوا من الجندية رجعوا أيضاً إلى قراهم . هذا أتم تفكك إقطاعيات النبلاء وتدمير بقايا الارستقراطية. البورجوازية الصناعية والبورجوازية التقنية كانتا في حالة خراب وبطالة .

ومؤرخ آخر يكتب حول الموضوع نفسه، " إن المعنويات القومية تمزقت تماماً نتيجة الحرب العالمية الأولى . لم يكن هناك من يريد أن يقوم بأي واجب تجاه الدولة، إن لم يكن مرغماً عليه جداً . النظام القديم انهار تماماً ونظام جديد لم يكن قد تكون بعد. الطريقة الوحيدة التي كان من الممكن لممثل الحكومة أن يتوقع بها تنفيذ أوامره كانت تهديد الموظف بمسدس " .

أحداث الجبهة وما ترتب عليها من نتائج وسعت جداً من هذا التفكك الذي امتد بشدة إلى جميع جوانب الحياة الروسية فبعثرها بقوة أفقياً وعمودياً - " ففي معركة واحدة، مثلاً، في تانينبرغ، قتل على الأقل مائة ألف جندي، في الشهور الستة الأولى من الحرب ما يقارب من نصف مليون، وفي عام ١٩١٥ أثناء الانسحاب الكبير من بولندا مئات ألوف أخرى . في آخر عام ١٩١٤، لم يكن هناك بنادق لنصف الجنود الجدد الذين وصلوا إلى الجبهة، وكان عليهم الاعتماد على البنادق التي يمكن الوصول إليها على أجساد الجنود القتلى . في خريف ١٩١٥ الهروب من الجيش الروسي بلغ نسبة ضخمة ؛ في عام ١٩١٧، كانت أقسام كبيرة من الجيش في حالة فوضى، والهروب من الجبهة كان مزمناً ، وحركات العصيان كانت قد بدأت وتعاقبت إلى أن انتهت أولاً في ثورة فبراير، ثم في ثورة أكتوبر " . أما من حيث خسارة روسيا عند نهاية الحرب، فإنها "كانت أعلى مما كانت عليه في أي بلد أوروبي ، مليونان وسبعمائة ألف من القتلى ، وعلى الأرجح ما لا يقل على خمسة ملايين من الجرحى . أما عدد الأسرى فكان أعلى بكثير ما كان عليه في البلدان الأخرى ، أو ما يقارب الأربعة ملايين ، أو ثلاث مرات عدد أسرى بريطانيا، فرنسا، والمانيا معاً " . الشيوعيون استطاعوا الإفادة من هذا التذرر لأنهم كانوا يملكون الأداة التي كان يمكن بها ذلك، وهي الحزب الثوري .

الثورة الشيوعية اجتازت اضطرابات ومخاطر المرحلة الانتقالية، مرحلة الانهيار العام الذي مزق المجتمع الروسي ومؤسساته وتقاليده نتيجة الحرب والهزيمة، أولاً وبشكل خاص نتيجة وجود الحزب الشيوعي كأداة تعتمد عليها. لهذا كتب المؤرخ للتاريخ الثوري المعروف ، هوبسيوم ، "الثورة عاشت أولاً لأنها كانت تملك أداة قوية بشكل فريد... منظمة في الحزب الشيوعي القوي ، الانضباطي، المركز السلطة... " ثم يضيف، بأن " الحزب كان الحكومة الوحيدة القادرة والراغبة في المحافظة على روسيا موحدة كدولة واحدة . أما السبب الثالث الأساسي فكان السماح للفلاحين بامتلاك الأرض، والقوة الوحيدة تستطغ ذلك " . لهذا ليس من قبيل الصدفة أن تكون الثورة الماركسية قد تحققت فقط بالاعتماد على الحزب اللينيني.

لينين تأثر بالتجارب الثورية الروسية التآمرية والإرهابية في القرن التاسع عشر. إنه انتقد ورفض، من حيث المبدأ والمنطلق، الإرهاب والتآمرية الثورية كاستراتيجيا، كتكتيك وكإيديولوجية، ولكنه تأثر بمبادىء الإرهابيين التنظيمية " .

الماركسيون يرفضون بشدة ليس فقط المفاهيم والتصورات الروحية وما فوق- الطبيعة، بل المفاهيم والنظريات السيكولوجية (وخصوصاً الفرويدية) والفردية، ومفهوم حرية الإرادة ، على الأقل كمنطلق. ولكن الممارسات الماركسية تكشف عن درجة عليا من الحوافز الأخلاقية ، من التوكيد على المشاعر الإصلاحية والثورية ، الواجبات والمسؤوليات الفردية. الماركسية تنطوي ، ككل إيديولوجية كبيرة، على

تناقض بين نظرية تقول بحتمية تاريخية تقود في اتجاه معين نحو مقاصد معينة وبين ممارسات تؤكد على الوعي والمسؤولية ودور الإرادة في تحقيق هذه المقاصد. إنها حتمية تجعل من المحتوم عليها أن تعتمد على عوامل ذاتية، وتمثل تناقضاً من التناقضات الأساسية المتأصلة في الوضع الإنساني التي لا تجد حلاً لها . انها ، في الواقع، تناقضات ضرورية لأنها تحفز الإنسان باستمرار على تجاوز ذاته ووضعه. لولا هذه التناقضات ، لكان زال الوضع التاريخي، ومعه التاريخ نفسه.

نظرية لينين أو اللينينية تنفصل أيضاً بشكل آخر مهم عن نظرية ماركس، وذلك في إبراز أهمية الأحزاب السياسية، وضرورتها في تحقيق الثورة أو في العمل نحوها . فالاعتماد على طبقة العمال بأن تثور نتيجة تطور اقتصادى رأسمالي عفوي يشكل خطأً كبيراً ، وإجهاضاً للثورة تقريباً . إنه كان يعتقد إن ترك العمال من دون توجيه وقيادة الحزب الثوري يكونوا غير قادرين على تكوين وعي طبقي ثوري يحرك نحو الثورة. هذا على عكس ماركس الذي اعتقد، نتيجة دراساته، ان طبقة أو طبقات العمال ستثور تلقائياً عند اتساع درجة أستغلالهم من قبل الطبقة الرأسمالية.

لينين انتهى، على العكس ، إلى النتيجة التالية، وهي أن طبقة العمال تحتاج ، كي تحقق وعياً طبقياً ثورياً ، إلى حزب سياسي طليعي، إلى مجوعة من الثوريين الذين يكرسون أنفسهم للثورة والقادرين بأن يكتشفوا الفرصة التاريخية للعمل الثوري حتى عندما لا تكون هناك حركة ثورية منظمة بين العمال أنفسهم . في كتاب " ما العمل ؟ " يقارن لينين أفكاره مع أفكار المنظرين الاقتصاديين الذين كانوا يرون أن الثورة الماركسية تنتج عن تجارب طبقة العمال في المصانع ، وفي العمل، على إيضاح مقاصدهم وتحقيقها خارج المصانع، ومن هذا يستنتج هؤلاء أن اتحادات العمال التي تنظمهم في هذه المصانع وخارجها ، تكون بالتالي تنظيمات ثورية لأن وجودها يوحد العمال ، يحثهم على الصراع ضد أصحاب العمل، ويضعهم وجهاً لوجه مع هؤلاء. هذا كله يغذي الوعي الثوري، يشحذه، ويرفعه. لهذا فإن موقف الاقتصاديين يدعم خلق اتحادات عمل بين العمال كطريقة في مواجهة تحديات سياسية تزداد أتساعاً وحدة بين الطبقتين.

عمل لينين الفكري كان نقداً مركزاً ينقض هذا الاتجاه من الجذور، ويعتبره ليس فقط كخطأ فكري، بل كانحراف يقتل الإمكانات الثورية التي تنطوي عليها أوضاع العمال. فهو يقول بأن طبقة العمال تكون عاجزة عن تكوين وعي سياسي ثوري إن هي عملت وحدها، وأن الوعي الذي تتمخض عنه يكون آنذاك وعياً إصلاحياً يعمل فقط على تحسين أوضاعها الاقتصادية المباشرة. فهي لا تستطيع بذاتها أن تتجاوز هذه الحدود التي تبقى ضيقة حتى وإن نجحت في ذلك. الحزب الثوري يكون ضرورياً كطليعة لها إن هي أرادت تغيير النظام الرأسمالي في أسسه ذاتها، وتبعاً لمقاصدها. فهذا الحزب يستطيع وحده أن يعمل بشكل حاسم نحو هذا الهدف، تتجه الطبقة العاملة إلى تكوين عقلية نقابية، عقلية اتحادات عمال سلمية مسالمة، وتصبح بالتالي، ومن دون قصد منها، أداة في يد الرأسمالية للحفاظ على بقائها. الحزب الطليعي هو الذي يستطيع أن يدفع الطبقة العاملة إلى مقاصد سياسية، أن يلحقها بالوعي السياسي الثوري، وأن يحوّل المشاغل الاقتصادية الضيقة المباشرة إلى مقاصد عليا جديدة تقترن بطبقة ثورية. إن الحل الصحيح المتمكن لمشاكل العمال لا يكون في إصلاحات جزئية تراكمية داخل الرأسمالية، بل في جهد ثوري مستمر لإسقاط الرأسمالية ، ولكن هذا يحتاج إلى الحزب الثوري كأداة له.

ترابط الجمهور المتذرر والحزب الثوري يوفر لنا واقعة تثقيفية مهمة جداً حول الوضع السياسي التاريخي أو حالة التنظير في تلك المرحلة التاريخية، وذلك لأنه يعني ظهور طور ما- بعد الماركسية في الماركسية نفسها. فبدلاً من البروليتاريا، الواعية لذاتها ورسالتها، حاملة قدر الإنسان التاريخي، وممثلة لانتصار الإنسانية لذاتها، ظهر الحزب الثوري المتحالف مع الجمهور المتذرر كأداة لتجديد المجتمع، وإعادة تكوين الإنسان نفسه. إن لينين كتب "إن واجبنا يفرض علينا الذهاب إلى تحت وبشكل أعمق إلى الجماهير

الحقيقية" ، و لكن بما أن هذه الجماهير ليست منظمة، ولا تقترن بالوعي الذي تحتاج إليه، كي تملأ الفراغ الذي تركه غياب البروليتاريا، فإن الحزب الثوري أصبح أداة الثورة. في هذا السياق الماركسي يصبح لينين هو الذي أتقن أداة العمل السياسي في الحزب الثوري، الاستراتيجي الذي يستطيع حقاً أن يكلم إلى الوضع التاريخي الجديد باسم الماركسية، وليس ماركس الذي اتجه إلى البروليتاريا، اعتمد عليها، فكان مفكر الثورة البروليتارية. فالحزب الثوري، وليس البروليتاريا، هو الذي يشق الطريق أمام الثورة ويقودها إلى النصر، وإلى المجتمع الجديد.

إن لينين وصل إلى النتيجة التالية من دراسته للواقع السياسي وهي أن العامل السياسي يجد معنى في كادر سياسي. المشكلة ليست إلغاء السياسي، بل امتصاصه في التنظيم، وخلق مركب جديد. الطريق ليست طريق آدم سميث أو كارل ماركس، بل طريق لينين، ليس من الممكن الاستغناء عن السياسي بالاعتماد على التصنيع، على الاقتصادي، أو المركب الإداري كما كان يبدو لعدد من علماء الاجتماع السياسي في القرن التاسع عشر، من أمثال فوريه ، سان سيمون، أو إزالته مباشرة على طريقة الفوضوية. لينين اتخذ موقفاً أساسياً مختلفاً عندما أكد على الخطر الذي يهدد الحركة الثورية، وهو بأن يتاح أو يباح للعمال بأن يتحولوا إلى القضايا الاقتصادية وينشغلوا بها. فإن ركز العمال تطلعاتهم وأعمالهم على مصالح مادية طبقية ، فإن مزاجهم الثوري الصلب يلين ولا شك ، ويخسرون بالتالي الانتصار على أسيادهم .

بالنسبة إلى لينين، إن الواقعة القائمة وهي أن المصالح الاقتصادية تشكل عاملاً حاسماً لا يعني بأي شكل أن الصراع الاقتصادي يجب أن يكوت العامل الأساسي ، وذلك لأن دعم المصالح الأساسية والحاسمة بين الطبقات يمكن أن يتم فقط نتيجة للتحولات السياسية الجذرية بشكل عام . لهذا كان على العمال أن يرتفعوا فوق الوعي الاقتصادي، وعياً سياسياً متكامل الجوانب، وعياً يستطيع أن يرد على جميع أشكال الاستبدادية، الظلم، العنف، واستخدام الآخرين، بصرف النظر عن الطبقة التي تتأثر بها .

إن النتائج التي وصل إليها لينين في عمله السياسي أصبحت حزءاً من الفكر السياسي الذي امتدت منه إلى العمل السياسي في ذلك الوقت، ولكن من سخرية القدر أن تخطيطه للثورة استخدم للمحافظة على النظام الرأسمالي وحمايته .

الحزب الثوري بالنسبة إلى لينين يجب أن يقوم على ما أسماه "المركزية الديموقراطية". فكل عضو في الحزب يجب أن يكون عضواً في خلية صغيرة نسبياً ، وجميع الخلايا الموجودة في منطقة جغرافية معينة (مدينة، قضاء، إقليم، ولاية" الخ...) يجب أن تعمل تحت قيادة لجنة عامة للمنطقة. هذه اللجان الإقليمية يجب أن تعمل تحت قيادة لجنة إقليمية أعلى ، وهذه اللجان تحت قيادة اللجنة المركزية. هذه البنية تكشف، كما يكتب لينين، عن الديموقراطية التي يقوم عليها الحزب، لأن جميع سلطات الحزب هي سلطات، منتخبة، وكذلك أيضاً اللجنة المركزية التي تنتخبها أعلى سلطة في الحزب، وهي المؤتمر القومي. المندوبون إلى هذا المؤتمر يكونون منتخبين أيضاً ، إن من واجب وحق كل عضو في الحزب أن يشارك في صياغة ومناقشة السياسة أو الخط الذي يمكن للحزب العمل به، ولكن بعد أن تتبنى سلطات الحزب العليا هذا الخط أو السياسة، يجب أن تنتهي المنازعات، وجميع أعضاء الحزب يجب أن يلتزموا بذلك. إن كان هناك عضو لا يوافق على قرار حزبي يتم الوصول إليه بهذا الشكل ، يستطيع أن يحتفظ بأفكاره ولكن التعبير عن ذلك، عن أي انحراف عن الخط أو السياسة لا يكون مسموحاً به.

لينين كان إرادياً ، يؤمن بالإرادة الثورية، وفي هذا كان يختلف عن كاتوسكي، مفكر الماركسية الغربية في ذلك الوقت، وعن الديموقراطية الاشتراكية في الغرب . إنه كان يريد إدراك قوانين التطور الاجتماعي ليس كي يتقيد بها، بل كي يتدخل بها ويغير مجراها. لهذا كان يؤكد على المنهج الجدلي الماركسي الذي يعني قفزة جدلية إلى الأمام عندما يتحول التغير الكمي إلى تغير نوعي . لينين أحل، كما رأينا، الانهيار

الذي يمكن أن يحدث (التذرر في منظور الدراسة الحالية) نتيجة هزيمة عسكرية محل الانهيار الذي يحدث نتيجة تناقضات التطور الصناعي الرأسمالي ، فيستخدمه في القفز فوق الطور الرأسمالي والثورة البورجوازية، ويخلق الاشتراكية مباشرة. هذا ما حدث فيما يتعلق بعلاقة الهزيمة بالثورة، ولكن الخيبة الأليمة كانت تنتظر لينين، الذي مات حزيناً لأنه اكتشف قبل مماته، أولاً، أن طبقة العمال دللت أنها طبقة غير ثورية حقاً ، وعاجزة بالتالي عن خلق مجتمع جديد، وثانياً ، أن الحزب أصبح يعمل وكأنه غاية في ذاته، يقود الشيوعيين بجدليته الخاصة وفي خدمته بدلاً من أن يكون في خدمة الثورة وأداة في تحقيقها. المادة ١٢٦ من الدستور السوفياتي تقول بأن الحزب الشيوعي يعمل كالطليعة للشعب العامل في نضاله لتقوية وتطوير النظام الاشتراكي ، ولكن هذا الحزب تحول عن هذا الدور فأصبح يعمل وكأنه كان الهدف من الثورة.

هذا كان صعباً على لينين بشكل خاص لأن التنظيم أو الحزب بالنسبة إلى الجماهير " كان في نظريته ما كانت الفكرة بالنسبة للمادة في فلسفة افلاطون ، ما كان يعطي شكلاً لما كان دون شكل " .

مرة أخرى ، تجدر الملاحظة : بأن الدراسة لا تنشغل بالمضمون الأخلاقي، السياسي ، والإيديولوجي العام الذي ينطوي عليه ويبرر به الحزب الثوري وجوده ، ولا تميز بين الأحزاب الثورية وفق هذا المضمون، أو المبادىء والتعاليم التي تقول بها. إنها دراسة تنشغل فقط - كما يجب أن يكون قد أصبح واضحاً الآن- بطبيعة الحزب الثوري، الأسباب التي تدعو إلى ظهوره، الاتجاه، والانتماء إليه، وكظاهرة ثورية حديثة. اللقاء في أرضية مشتركة على الصعيد الأول قد يكون غير ممكن، ولكن ضد هذا اللقاء ممكن على الصعيد الثاني الذي يقتصر على تفسير الحزب الثوري كظاهرة ثورية حديثة تعود إلى درجة عليا أو كافية من التذرر الاجتماعي . يمكن أن يتم التعبير عنه بنماذج اجتماعية سياسية أخلاقية مختلفة، أو بكلمة مختصرة إيديولوجيات مختلفة.

هنا تجدر الإشارة كملاحظة إيضاحية ضرورية، أن مفهوم "الثورية" أو "الثوري " يعني، ويجب أن يعني، في ضوء تجارب التاريخ الثورية، اجتماعياً ونفسياً وتاريخياً ، حركة، إيديولوجية، أو تنظيماً يتجه مع تحولات التاريخ، يعمل على الكشف عن الاتجاهات التي أخذ يتمخض عنها. إنه بكلمة أخرى، مفهوم يعني أن الحركة، الإيديولوجية، التنظيم عمل يساعد التاريخ على تجاوز، وصنع وتكوين ذاته على صعيد جديد ، على مستوى تاريخي أعلى . النازية تصبح ، من هذه الزاوية ، في ضوء هذا المقياس الموضوعي، حركة مضادة للثورة ، لأن الإيديولوجية والتعاليم العرقية والعنصرية والنخبوية التي ترجع إليها وتنطلق منها، وتجد شرعيتها السياسية فيها، كانت تعمل خارج وضد حركة التاريخ كما كانت هذه الحركة تكشف عن ذاتها منذ عصر النهضة، وخصوصاً القرن الثامن عشر، العقلانية والثورة الفرنسية.

الأسباب التي تفسر نجاح النازية كانت عديدة، منها هزيمة المانيا في الحرب العالمية الأولى، شروط الصلح أو معاهدة فرساي القاسية ، جمهورية فايمار التي لم تكن تتمتع بشرعية قوية ، أولاً ، لأنها هي التي عقدت معاهدة الصلح ؛ وثانياً ، لأنها كانت لا تعتمد على تقليد جمهوري أو ديموقراطي متين الجذور، إنها كانت، كما وصفها البعض، جمهورية من دون جمهوريين. ولكن هذه العوامل كانت لا تقدر أن تقود في ذاتها إلى نجاح النازية لولا درجة التذرر الاجتماعي والنفسي الواسعة الأبعاد التي كانت قد نتجت عن الثورة الصناعية والاقتصادية ، الحداثة والتحديث، ثم اتساع هذا التذرر، أفقياً وعمودياً ، نتيجة التضخم المالي في العشرينات، ثم الأزمة الاقتصادية في أواخر العشرينات ، وأوائل الثلاثينات. هذا لا يعني أن العوامل الأولى التي ترتبت على الهزيمة لم تفرز تذرراً نتج عنها ، ولكن أن هذا التذرر لم يكن واسعاً وحاداً ومزمناً بقدر كاف ، على الأرجح . بالإضافة إلى ذلك يجب أن لا ننسى "موت الله " الذي أعلن عنه الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه ، أي زوال الدين كقوة توحد، تبرر، تفسر، وتوفر مخرجاً يلجأ إليه الإنسان في مواجهة الأزمات الشخصية ، والعامة ؛ الميتافيزيقية ، والأخلاقية ، التي تواجهه.

في أي حال، ما يمكن قوله يشكل أكيد كواقعة موضوعية هو أن حالة التذرر التي نتجت عن الهزيمة ، ثم عن التضخم المالي الهائل، والأزمة الاقتصادية الكبيرة كانت السبب المباشر الذي عرفت النازية كيف تستخدمه في الوصول إلى السلطة . هزيمة ألمانيا ، كما كتب أحد المؤرخين ، وسعت حالة الاغتراب التي نتجت عن الحرب العالمية الأولى . فمؤسسات وشرائح المجتمع المدني التي كان يمكن لها مقاومة استيلاء النازية على السلطة انفتحت للمد النازي وقبلت به، لأنها كانت تأمل أن تكون هذه الحركة القومية المتطرفة للحل الذي يضع نهاية لكابوس ١٩١٨ المروّع . ثم أضاف بأن التضخم المالي الرهيب في العشرينات، ثم الأزمة الاقتصادية الخانقة أثناء ١٩٢٩- ١٩٣٣ . اللذين اقتلعا جذور الملايين وحولها إلى جمهور ضخم مبعثر الروابط كانا السبب المباشر لنجاح النازية في الوصول إلى السلطة عام ١٩٣٣. هذه الحالة من التذرر العام هيأت الحالة النفسية الأخلاقية ، أو بالأحرى خلقت الفراغ النفسي الأخلاقي الذي كان يوجه بإلحاح إلى مخرج ما. هذا المخرج كان يتحقق عادة، في المجتمع الحديث، بالحزب الثوري.

إن الرغبة الملحة تقريباً بقبول النازية من قبل الملايين من الألمان يجد تفسيراً له في الوحدة النفسية، الأخلاقية والإيديولوجية التي وفرتها بشدة لجماهير العمال، والمثقفين، والطبقة الوسطى، والمزارعين، الذين كانوا يعيشون في حالة تذرر. فهي كانت توفر للأعداد الواسعة التي كانت تنضم إليها شعوراً بأنها جزء من كل جديد متراص البنية تتماهى معه في عضوية، في هوية جديدة، في إيديولوجية جامعة تعطيهم، فيما تعطيهم، منظوراً جامعاً للحياة ، وفي الحياة .

التجربة النازية توفر لنا مثلاً قوياً حول ضرورة تحلل النظام الاجتماعي السياسي ، حول ضرورة تذرره بقدر كافٍ ، كأرضية ضرورية لظهور الحزب الثوري . في دراسة قيّمة حول الموضوع يشرح المفكر الألماني داهرندورف كيف أن فشل الديموقراطية الليبرالية في ترسيخ سلطتها أو وجودها في جمهورية فايمار خلق فراغاً سياسياً زاد من حالة الاغتراب الموجودة، التي دفعت بالشعب الألماني إلى انتخاب مرشحي الحزب الاشتراكي القومي، أي النازي، وبالتالي هتلر. ففي جمهورية فايمار كان النظام الاجتماعي مؤسساً بشكل فعّال على علاقات سلطوية، على سلطة أوتوقراطية، ولهذا فإن المحاولة التي قامت بها هذه الجمهورية لتأسيس الديموقراطية كانت محاولة محكوماً عليها من البدايه بالفشل . إن الأساس الاجتماعي للسلطوّية الالمانية، وبالتالي لمقاومة المجتمع الألماني لليبرالية والحداثة التي تأتي معها، كان يتكوّن من مجموعة أعراض بنيوية كانت تشد الشعب إلى مراتبية اجتماعية وجدوا أنفسهم فيها من دون إرادة منهم ، وهذا كان يمنعهم من المشاركة الجدية فيها .

إدراك النازية تماماً لحاجة هذا الشعب المتفكك الروابط ، المبعثر المشاعر، إلى الاندماج الشعوري بحقيقة أكبر منه للخروج من حالة العزلة والتي يجد نفسه فيها كان واضحاً في " التظاهرات والحشود الضخمة الرائعة التي نظمها، والتي كانت تشعّ وتوحي بالقصد الصلب، وتأمين الوحدة والاندماج. لجميع المشاركين فيها.

إن هتلر نفسه كتب في هذا السياق "عندما تتحطم القلوب، وتيأس الأنفس الإنسانية ، عندئذ يظهر غزاة المهانة والبؤس ، العبودية الروحية، والقسر الجسدي... وينظرون إلى هذه الأنفس من فوق ، ويمدون أياديهم الخالدة إلى هذه المخلوقات الفانية ، اليائسة" إن هتلر أدرك " في حسه المتفوق للسياسة النفسية، للحالات النفسية الجماعية سر حالة القلق الواسعة الانتشار، وبالتالي تجاه التفاسير الليبرالية العقلانية التي كان يقول بها ساسة الطبقة الوسطى الليبراليون، وركز على حاجات جيل ما بعد الحرب النفسية، الجيل المثقل بمشاكل سياسية تخرج عن إرادته " . إن نجاح هتلر الواضح كالزعيم ، دلل على رغبة الجماهير بإغراق هويتها في هويته . بمناسبة إقامة البناء الجديد الضخم للوزارة ، وجه هتلر خطاباً إلى العمال يبرر ضخامة البناء، قال فيه " لماذا دائماً الأضخم "؟، ثم أجاب رأساً على ذلك بقوله "إنني أصنع هذا كي

يستعيد كل فرد ألماني احترامه لذاته . إنني أريد في مائة مجال أن أقول للفرد، إننا لسنا شعباً سلفياً؟ على العكس، إننا نتساوى تماماً مع كل أمة أخرى ، مع البلدان النموذجية التي استبدت دائماً بالشعب الألماني بسبب تفوقها" . هنا تجدر الإشارة أن غاية ستالين كما أكد عليها هو نفسه، كانت مماثلة وهي خلق روسيا قوية تتحرر نهائياً من حالة الضعف والتخلف التي كانت تجعلها فريسة للغزاة والدول القوية.

النازية قد تكون عجزت عن استلام السلطة من دون تعاون ودعم عناصر أو جماعات رأسمالية صناعية ومالية، كما يقول البعض ، ولكن القاعدة الأساسية الرئيسية لنجاحها كانت الجماهير المتذررة. ثم يجب أن لا ننسى واقعتين إضافيتين أساسيتين وهما، أولاً، أن هذه العناصر والجماعات اتجهت إلى مساعدتها بالضبط لأنها كانت حركة ترتبط بها الجماهير الكثيفة. كان هناك عشرات من الأحزاب التي كانت تدعو إلى تعاليم مماثلة، ولكن هذه العناصر لم تتجه إلى أحدها، بل إلى الحزب النازي، ثانياً، هذا شيء يمكن قوله حول كل ثورة من الثورات الحديثة الكبرى ابتداء من الثورة الفرنسية التي أعتمدت على عناصر من الأرستقراطية في نجاحها، ولكن عناصر تلتقي مع القطاعات الأخرى في تذررها. إلى هاتين الواقعتين يجب إضافة واقعة ثالثة، وهي اننا عندما نحدد طبيعة ظاهرة نفسية، اجتماعية سياسية" الخ... من الطلاقة ، إلى الانتحار، إلى الثورة ؛ الخ... فإن ذلك لا يعني غياب أية وقائع أو جوانب لا تنسجم مع التحديد. فهذه تكون دائماً موجودة ، ولكن دائماً بشكل محدود من الوقائع الفردية التي تعود إليها الظاهرة.

لقد قيل أيضاً كنقد عام، إن هتلر اقتبس، كموسوليني، عناصر مختلفة من الاتجاهات الإيديولوجية الموجودة، وكون منها إيديولوجية الحزب. ولكن هذا ينطبق، بأقدار مختلفة، ولكن دائماً مهمة، على جميع الإيديولوجيات التاريخية. النقطة الأساسية والمهمة هنا ليست العناصر الإيديولوجية أو الفكرية المقتبسة، بل الطريقة التي تترابط بها، الأطروحة الرئيسية التي تقوم عليها الإيديولوجية ويتم الترابط بها وحولها، هذا النوع من الترابط هو الذي يعطي ، في تفاعله ، الهوية الخاصة بالإيديولوجية، الهوية التي تميّزها. ثم إن ما يعطي الإيديولوجية قيمتها وفاعليتها التاريخية يكون في الوضع التاريخي الذي يولد حاجة نفسية وأخلاقية لها، وليس في نوعيتها الفكرية وعقلانيتها.

الفاشستية الإيطالية قد تكون ثانوية- وهي ثانوية بشكل بارز- من حيث الطبيعة الثورية بالنسبة للنازية كحزب فاشستي " وقد لا تكون ذات أبعاد ثورية مماثلة لما نجد في الأحزاب الثورية ، ولكنها لا تزال تعبّر بطريقة مماثلة، وإن بقدر أقل، عن الأسباب التي دعت إلى ظهور هذه الأخيرة. السبب في تخلفها هذا يعود، في الواقع، إلى الواقعة التالية، وهي أنها لم تكن تعبّر عن قدر مماثل من التذرر الاجتماعي، وبالتالي فإنها تدلل بذلك ، وبشكل إضافي و غير مباشر، على العلاقة المتينة التي قامت بين هذا التذرر وبين ظهور الحزب الثوري كظاهرة حديثة. في التدليل على هذه الواقعة أكتفي فقط بالرجوع إلى ثلاثة أسماء كبيرة، عالم الاجتماع تالكوت بارسون، الفيلسوف الوجودي والعالم النفسي رولو ماي، والمؤرخ للظاهرة الثورية ، فون لاو بارسون كتب بأن خاصة الحركات الفاشية هي الامتداد كنتيجة لمرحلة من الاغتراب أو الفراغ حيث يكون الأفراد قد أصبحوا فيها محرومين من الروابط المؤسساتية التي تؤمن اندماجهم الاجتماعي . أما رولو ماي ، فإنه يكتب أن " هناك سبباً قوياً لخوفنا من هذا الوضع الذي يقوم على التكيف والفراغ الفردي . يجب فقط أن نذكر أنفسنا بأن الفراغ الأخلاقي والشعوري في المجتمع الأوروبي منذ عقدين أو ثلاثة (أي العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي) كان دعوة مفتوحة للدكتاتورية الفاشية بأن تتدخل وتملأ الفراغ " . ثم يضيف إن الخطر الكبير الذي يترتب على هذا الفراغ والعجز هو أنه يقود ، عاجلاً أو آجلاً ، إلى حالة قلق ويأس مؤلمة ، وأخيراً إلى وضع يسوده شعور بالعبث، واحباط لأثمن صفات الإنسان . النتائج الأخيرة هي إعاقة وافقار الناس سيكولوجياً ، أو الأستسلام لاستبدادية ما " . وفون لاو يكتب من طرفه " إن موسوليني دلل على بصيرة نافذة عندما تحقق أن الحرية الديموقراطية التي تحققت في الانتاج العالمي المفاجيء الذي حدث في مجتمع ما بعد الحرب خلق أشكال قلق عميقة . فالحقائق القديمة التي كانت بالكاد قادرة على ربط الناس معاً أصبحت عاجزة عن العمل ،

ولهذا كان من الضروري خلق حقائق أخرى أكثر ملاءمة. ففي الفوضى التي ظهرت في أعقاب الحرب أصبح الشعب يشعر بحاجة أكبر إلى السلطة ، الاتجاه الواضح، والنظام، ومتعطشاً إلى ذلك أكثر من أي وقت سابق . الفاشية أصبحت إيماناً كان الشعب مستعداً أن يموت لأجله، والاستشهاد كان، كما نجد في الحرب، البرهان النهائي على الحقيقة" .

ما يشار إليه كاليسار الجديد أو الثورة الجامعية في الستينات والسبعينات من القرن الماضي كان يساراً عاجزاً سياسياً ، وبالتالي كان يجب أن لا نقف عنده، لأن الدراسة تنشغل بالأحزاب الثورية التي تكاملت دورتها فأنشأت نظاماً ثورياً جديداً غير نمط الحياة الموجودة ؛ ولكن وجدت أن من المفيد الوقوف عنده قليلاً لأنه يوفر لنا صورة حسنة ، قوية ومؤثرة عن النتائج التي تترتب على التذرر الاجتماعي النفسي الأخلاقي وما يقترن به من اغتراب وفراغ ، ولكن من دون قدرة على ترجمة ذلك إلى نظام سياسي اجتماعي وإيديولوجي جديد، يتم فيه تطويعها ، تجاوزها واستخدامها بطريقة خلاقة.

الستينات من القرن الماضي التي ظهرت فيها الثورة الجامعية أو اليسار الجديد ، " كانت كما يبدو سلسلة طويلة من الأحداث الانفجارية، الاغتيالات، الاضطرابات، الأعمال الشرسة ، التظاهرات، حوادث قتل تقوم بها عبادات صغيرة جديدة ؛ كل هذا كان يعني صدمات شديدة إلى درجة كانت تولد شعوراً بأن الحياة أصبحت في قبضة صانع أفلام مجنون، مغرم بالعنف. إنها كانت رواية مرعبة مرضية كنا مرغمين على مشاهدتها دون أن نجد تفسيراً معقولاً لها " . هنا نجد مثلاً عن الأوضاع التاريخية المضطربة التي كانت تقود إلى ظهور الحزب الثوري كمخرج منها.

إن جيل الستينات في أميركا كان " مدللاً أكثر من أي جيل آخر في التاريخ . إن امتيازاته الاقتصادية كانت غير عادية، وتوقعاته المستقبلية فريدة ، ومتعلماً إلى درجة تجاوزت أحلام أي جيل سابق... حتى بعد أن خرب قسم منه جامعة كولومبيا، نجد أن اللجنة التي حققت في ذلك مجدته كالجيل الأكثر معرفة، الأكثر ذكاء، والأكثر مثالية الذي عرفه هذا البلد" . ولكن هذا الجيل نفسه أعلن بقوة أنه ضحية قمع اجتماعي، عائلي، سياسي، وتربوي . إن عالم النفس المعروف إبراهيم ماسلو كتب "ان المجتمع الأميركي أشرف على التحول إلى مجتمع ترف ، ولكن الشباب يعاني مجاعة في القيم . إن حاجاته المادية تحققت بقدر أكثر مما كان ينتظر، ولكن هذا الجيل الجديد يتوق الآن بشدة إلى التحقق الذاتي ويحتاج بأن يكون إنسانياً أكثر" .

هذا اليسار الذي كان يتشكل من الطلاب في فرنسا وبشكل أساسي في باريس، وخصوصاً الصوربون، وفي الجامعات بشكل عام في أميركا ، فشل رغم الامتداد الواسع الضخم الذي حققه في الجامعات. في أميركا كان يقدر أن معدل ثمانمائة جامعة كانت باستمرار في حالة إضراب وثورة ضد النظام الموجود. الرئيس الأميركي كان لا يتجاسر في ذلك الوقت أن يزور إحدى هذ الجامعات. وفي فرنسا اضطر الجنرال ديغول نفسه، رئيس الجمهورية، بأن يترك باريس ويلجأ إلى أحد معسكرات الجيش الفرنسي لأنه كان يفكر، كما علق بعض المراقبين السياسيين ، بأن يستخدم هذا الجيش ضد هذه الثورة الجامعية، ووضع نهاية لها. ولكن هذه الثورة الجامعية فشلت لأن جماهير الشعب ، ومنها اتحادات وأحزاب العمال أنفسهم لم تنضم إليها . فهذه الأخيرة كانت تمتص إمكانات التذرر الثورية الموجودة. ثم إن هذا التذرر لا يكشف تماماً ، كما يبدو، عن مضاعفاته الثورية دون عوامل أخرى مساعدة كأزمة اقتصادية ، أو هزائم خارجية ترافقه، أو الأزمة والهزائم معاً .

اليسار الجامعي الأميركي كان يتكون، في الواقع، من مجموعات مختلفة، بينها مجموعة كانت في أقصى هذا اليسار تدعى "رجال العاصفة"، تنبذ تماماً جميع قواعد وقيم السلوك التي نشأوا عليها وعرفوها. إنها مجموعة اتخذت كلمة "البرابرة" كصفة لها ، لأنها كانت ترى أنها تمارس دوراً مماثلاً لدور القبائل

البربرية، كالفاندال والفيزيغوت، التي جاءت كغزاة من شمالي أوروبا واتجهت إلى الامبراطورية الرومانية، ودمرت روما التي كانت في طور انحطاطها .

ما يكشف عن معنى كبير بالنسبة لموضوعنا هو أن رفض المجتمع الأميركي لهذا اليسار وأفكاره، دفع بأفراده إلى الخروج من هذا المجتمع وإلى إقامة جماعات أو مستوطنات صغيرة منفصلة مستقلة يعيشون فيها تبعاً لمبادئهم الخاصة، وحيث يمكن لهم، كما اعتقدوا، أن يعيشوا كما يريدون. ولكن تجربة هذه المستوطنات كشفت سريعاً أن إرادة الاتحاد معاً والعمل يداً واحدة غير كافية ، كما تراءى لهذا اليسار الذي كان يرفض صياغة برامج وقواعد واضحة مترابطة للعمل بها. هذا كان واضحاً في فشل هذه المستوطنات وزوالها بعد مدة قصيرة من تأسيسها ، المستوطنات القليلة التي استمرت لمدة طويلة كانت بالضبط تلك التي كانت منظمة جيداً ، وتنقاد لبرامج وقواعد من هذا النوع.

ولكن ما يكشف عن تطور آخر أهم بالنسبة لموضوعنا هو أن جماعات وأعداداً كبيرة من هذا اليسار الجامعي اتجه أخيراً إلى عبادات دينية مختلفة يجد فيها مخرجاً له من حالة التذرر، الفراغ ، والاغتراب التي كان مثقلاً بها . " فمن أعياد الحب عام ١٩٦٧، إلى الهيجان الثوري عام ١٩٦٩، انتقلنا إلى أتباع المسيح الغرباء الميول، والعبادات الهندية المستوردة عام ١٩٧٤، من الحرية الجنسية، والأعمال النضالية الحرة وصلنا إلى عبادات سلطوية متحجرة، جامدة تكرس ذاتها لنشر ممارسات دينية متقشفة، وظلامية ؛ وكل هذا في مدة ست سنوات، زمان قصير بشكل فريد" . هذا ما يستوقف النظر بشكل خاص في هذا السياق. فهذا اليسار الذي كان يرفض كل السلطات الموجودة، سواء كانت سياسية، اجتماعية، أخلاقية ؛ الذي كان لا يريد أية برامج ومخططات تنظم نضاله، الخ... هذا اليسار انتهى بإعطاء الولاء التام، بله العبادة ، لمعلمين كهنة هندوس (Guru) يمارسون سلطتهم وقيادتهم من دون قيود، وحدود، ويحاطون في كثير من الأحيان بالعبادة وكأنهم آلهة . في ذلك الوقت، أوائل السبعينات من القرن الماضي، جاء غلام من الهند في السادسة عشرة من عمره - طبعاً مع مساعدين- للتبشير بألوهيته وأنه طريق الخلاص!... إن عدداً من أفراد هذا اليسار تحولوا إلى أتباع مؤمنين مخلصين يبشرون به، بتعاليمه وألوهيته. إن أحد كبار قادة هذا اليسار، رينيه دافيس، كان بين هؤلاء، وفي مقابلة تليفزيونية حول هذا الإيمان الديني الجديد، أجاب " إنه ليس إلهاً فقط ؛ إنه أكبر بكثير من إله "!...

معلم كاهن آخر ، مهاريشي ماهيش جذب إليه أيضاً عدداً كبيراً من الأتباع بينهم عدد من هذا اليسار الذين كانوا يحيطونه بهالة إلهية، ويعبدونه كإله.

هناك، في الطرف الآخر نجد مؤسسي عبادات، من النوع الذي يمثل صغاراً إنسانياً " واتجاهاً إجرامياً " ولكن رغم هذا كانوا يجذبون إليهم أعداداً كثيرة من الأتباع المؤمنين . إن أحد هؤلاء، مانسون، كان "إله " مجموعة صغيرة، بضع عشرات فقط ، ارتكب عملية قتل جماعية، بضع ضحايا، في طليعتهم ممثلة معروفة في ذلك الوقت وهي شارون شات، هؤلاء كانوا من الأبرياء الذين لا يعرفهم أبداً . إنه الآن في السجن لمدى الحياة مع ثلاثة أو أربعة من الأتباع النساء اللواتي شاركن في عملية القتل معه.

هذا كله كان يعني نقل السلطة التي تمردوا عليها في أشكال محدودة إلى أشكال جديدة مركزة تماماً وغير محدودة، أو في صورة أخرى " نقل السلطة المطلقة التي كان يمارسها آباؤهم عليهم إلى هؤلاء المعلمين الكهنة كان يعني بقاءهم في حالة من التبعية الطفولية .

إن إحدى الباحثات كتبت في آخر السبعينات من القرن الماضي بأن " هناك أعداداً كبيرة من الشباب الأميركي الذين يمارسون حالياً عبادة مستوردة من الخارج، تماماً كما كان يحدث في روما في طور انحطاطها... إنهم أفراد تعساء خسروا علاقتهم بالعالم الحقيقي، ولكنهم كانوا مادة سهلة لعبادات جديدة" .

ما يستوقف الانتباه هنا أيضاً هو أن هذه العبادات الشرقية المستوردة ، أكثريتها الكبرى، تدعو، في الواقع، إلى الانشغال بالذات وتنميتها. ولكن هذا لا علاقة له بما يبحث عنه هؤلاء، وهو الخروج من عزلتهم، من الفراغ الذي تنطوي عليه هذه الذات، من غموض الحياة وتناقضاتها، ومن القلق الداخلي الذي يعذبهم، وهذا يعني ليس "تسوق هوية" فقط ، بل هوية جماعية.

إن عدداً من الباحثين تساءلوا كيف كان من الممكن لأعداد كبيرة من الذين فجروا انتفاضة الستينات من الشباب الجامعي في أميركا ، أو ما أصبح يشار إليه كاليسار الجديد، كيف كان يمكن لهؤلاء الانتقال السريع الذي حدث من تظاهرات تحتفل بالحب والفرد دون قيود، وضوابط ، وتعبر عن نقمتها الهائجة ضد الثقافة الموجودة والنظام الذي تقترن به، كيف كان يمكن لهؤلاء أن يتحولوا إلى عبادات جديدة محلية ومستوردة ؛ من الحرية الجنسية والأعمال النضالية الاعتباطية ، إلى عبادات استبدادية متحجرة تكرس ذاتها لنشر ممارسات دينية متقشفة ومعتمة. السبب الذي يشار إليه في كثير من الأحيان هو النرجسة أو الانشغال التام الاستثنائي بالذات، مما يعني حالة مفرطة من التذرر. لهذا كانت هذه العبادات تمارس جاذبية خاصة عليهم ببنيتها المنظمة جداً ، المترابطة تماماً، ليس فقط من حيث هويتها الذاتية، بل في علاقتها مع العالم الخارجي . بنية كهذه تكشف عن فائدة كبيرة لأفراد ممزقي الهوية كهؤلاء. " ولكن يجب أن أعترف " ، كما تكتب الباحثة ماري نيلسون، "بأنني دهشت جداً عندما علمت أية درجة من التفكك يمكن أن تحدث لقسم من هؤلاء. إن امرأة من أتباع هار كريشنا، مثلاً ، كانت مدمنة على الهيروويين، دخلت إلى المستشفى تسع مرات للمعالجة النفسية ، وأطلقت الرصاص مرة على زوجها من بندقية موجودة في المنزل... قصص كهذه عديدة ، وتحتوي على الكثير من العناصرنفسها ، عزلة، وحدة ، كآبة عميقة ، شكوك حول الحالة العقلية، وخصوصاً حالة يأس تام... إنني لا أستطيع، في الواقع، أن أؤكد بدرجة كافية، على درجة هذا اليأس التام . إن امرأة تعطي فكرة عن ذلك بقولها، إنني طيلة حياتي كنت أفتش عن شخص واحد أستطيع أن أمنحه حياتي . المؤسسات التقليدية، والتنظيمات المساعدة لا تكون طبعاً كافية لحالات كهذه ". ثم أضافت كمثل آخر، "إن امرأة أخرى ذكرت أنها قضت أربع سنوات في الهند وهي تنتقل على أقدامها من أشرم، (Ashram) أو، معتزل ديني إلى أخر، وفي أثناء ذلك كانت تبكي كثيراً ؛ ثم التقت باحد تلامذة الغورو ماهراج جي (Mahrag Ji) الذي أرسلها إلى منزل هذا الغورو لمساعدتها. ولكن عندما تحدث إليها بعد انتظار طويل ، فإن ردها الوحيد كان البكاء لمدة عشرين دقيقة" . هذه قد تكون أمثلة من النوع المتطرف، ولكن أفراد هذا اليسار كانوا بشكل عام يشاركون بدرجات مختلفة بهذه المشاعر الواحدة في العزلة " الوحدة، والكآبة العميقة. هذا النوع من المشاعر هو الذي كان يدفع إلى الحزب الثوري كمخرج منها. إن التذرر الاجتماعي الذي كانت تترتب عليه، كما رأينا، كان يتخذ درجات مختلفة من الأتساع والحدة ، وبالتالي كان من الطبيعي أن تتخذ هذه المشاعر هذه الأشكال المختلفة.

النقطة الأساسية هنا في أن العنصر الواحد المشترك الذي يحدد الفرد المتذرر الذي كان يتمخض عنه المجتمع الحديث لمادة الحزب الثوري في أنه فرد يجد نفسه محاطاً دائماً بالناس، ولكنه في الوقت نفسه يجد أنه وحيد، يعيش دائماً في وحدة، وبالتالي يبدأ بالتطلع عفوياً إلى روابط حميمية وشخصية بشكل ما، في مكان ما. الحزب الثوري يوفر له هذا المكان فيتجه إليه.